بواعث الحزن في شعر زينب الحاج مديِّح
ديوان انطفأت شموعي انموذجاً

The Motives of Saness in pPetry of Zeinab El -hajj Madeh
The Peotry Collection (Extinguished are my Candles) as a Model

م.م. محمد غركان سرحان
جامعة واسط– كلية علوم الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات
Email: mgharkan@uowaseit.iq

ملخص البحث

(وانطفأت شموعي) أولى مجموعات (أ.م.د زينب الحاج مديِّح) الشعرية. وقد بدت فيه وسط الظروف العائلية والموضوعية المحيطة بها، شاعرةً فذة ذات اصالة عميقة، وحساسية مفرطة في التعبير عما يختلج في نفسها وعقلها من عواطف وأحاسيس وأفكار، طابعها العام الحزن واليأس والتشاؤم. والحزن في أشعارها فإنَّ بواعث الكآبة التي تتجلى في كل بيت من أبيات كتابها الشعري هذا، ليست في الحرمان ولا في الحبّ الضائع ولا في فكرة الموت، وإنما هو (حزن فكريّ) نشأ عن التفكير في موت من تحب، فانتقلت هذه الملاحظات والتأملات إلى صعيد الحسّ، فحفرت في القلب جروحاً لا تندمل، وأخذت من بعد ذاك تتدفق آهات وأحزاناً.يلمح القارئ من خلال شعرها روحها الحائرة الحزينة مضطربة في كل قصيدة من قصائدها (وانطفأت شموعي) هذه التسمية وحدها كافية للدلالة على رغبتها في السكينة والعزلة والانطواء لكي تطالع سطور الألم والأسى.

الكلمات المفتاحية: الحزن، الشعر الحديث، زينب الحاج مديح، وانطفأت شموعي، الموت، الغربة.

Abstrct

(Extinguished are my candles) the first of Dr zainob Al Hajj Madehs verse collectons

In the midst of the family and objective circumstances surrounding her, she appeared to be a unique poet of deep

the heart that do not heal, and then began to flow groans and sorrows.

Through her poetry, the reader hints at her bewildered, sad soul disturbed in each of her poems (extinguished my candles) this name alone is enough to indicate her desire for serenity, isolation and introversion in order to read the lines of pain and sorrow.

Keywords: sadness, modern poetry, Zainab al-Hajj Madeh, extinguished are candles, death, alienation

originality, and an excessive sensitivity to express the emotions, feelings and thoughts that engulf in herself and her mind, her general nature is sadness, despair and pessimism.

The motives of melancholy that manifest themselves in each of the verses of her poetic book are not in deprivation, nor in lost love, nor in the idea of death, but it is (intellectual sadness) that arose from thinking about the death of the one she love, so these observations and reflections moved to the level of sense, so they dug wounds in

مشكلة البحث:

تتمثل بدراسة ظاهرة الحزن من خلال النصوص الشعرية في ديوان (وانطفأت شموعي) التي تجلت فيها تلك الظاهرة، وذلك عبر استقراء النصوص التي غليها طابع الحزن، ومحاولة الوقوف عند الأسباب التي دفعت الشاعر للوقوع في براثن الحزن.

أهمية البحث:

تأتي الأهمية لهذا البحث من ظاهرة الحزن التي يتطلع لمعالجتها، وكذلك من أهمية النصوص التي يختارها كعَينات للدراسة، لظاهرة الحزن لها حضور لافت للنظر في شعر (زينب الحاج مديّح) تستوقف الدراس، وتثار العديد من التساؤلات حول الظاهرة وهذه التساؤلات تسيطر على العالم النفسي للشاعرة زينب الحاج مديح.

أهداف البحث:

يهدف الى دراسة الحزن في شعر (وانطفأت شموعي)، كظاهرة لها حضورها وتجلياتها وتأثيرها في العديد من النصوص الشعرية

التي تم التطرق إليها، ويهدف كذلك إلى محاولة التعرف على الأسباب التي أثرت على العالم النفسي للشاعر، والتي جعلت إنساناً حزيناً وينفث حزنه ويسكب آلامه في قصائده. وعلاقة هذا الحزن بالواقع والظروف المعيشية للشاعر.

اشكالية البحث:

يطرح هذا البحث العديد من التساؤلات، منها بأسباب أنتشار ظاهرة الحزن في تجربة الشاعر (زينب الحاج مديّح)؛ وإلى أي حد يمكن النظر، وكذلك إلى أي حد يرجع الحزن إلى أسباب موضوعية ذات صلة مباشرة بالواقع المعيشي للشاعرة، وهل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تعيشها الشاعرة أثر في غلبة الحزن على عالمه النفسي؟ ثم انعكاسه على تجربته الشعرية.

منهج البحث:

الملائم نستخدمه في البحث هو "المنهج الوصفي التحليلي"، المنطلق منالنص، يقرأه مرّة أولى، ثم يقرأه قراءة ثانية وثالثة إلى أنْ يتمثله، فيصنفه ويبيَّن الرؤى، ثم يحلله ويستخرج هذه الرؤى، ويصنّفها، ويعيد تركيبها، ليبلورها.

المقدمّة

تقوم الدراسة (بواعث الحزن في شعر زينب الحاج مديّح) على تتبع ظاهرة الحزن في كتاب شعري من دواوين الشاعرة العراقية الدكتورة (زينب الحاج مديّح) ، وهو ديوان " وانطفأت شموعي "، إذ لوحظ سيادة نغمة الحزن بصورة واضحة على هذا الديوان، وإن كانت هذه الظاهرة متفشية في معظم إنتاجه، فإننا ندرس هذا الديوان كأنموذج لهذه الظاهرة.

أوّلاً- مفهوم الحزن:

أ-لغةً:

في لسانِ العربِ لابنِ منظور ((الحزن في لغة العرب: ما غلظ من الأرض، ويطلق، أيضًا، على خشونة النّفس لما يحصل فيها من الغم، وهو نقيض السّرور فيقولون حزن حزنًا، وحزن بمعنى اغتم))[١].

ب- اصطلاحًا:

الحزن هو ألم نفسي يوصف على أنه شعور بالبؤس والعجز، وهو شبيه بالهم، الأسى، الكآبة، واليأس. ومن المؤكد أن هذه المشاعر بالعادة هي مشاعر سلبية عندما يحس بها الإنسان فيصبح الشخص هادئًا، قليل النشاط، منفعلًا، عاطفيًا وانطوائيًّا.

والحزن حالة تفرضها وضعية الإنسان في الكون، هذه الوضعية تشتمل على نقيضين: القدرات المحتومة، والآمال العريضةَ، حتمية ألموت، وغريزة حب الحياة معاً. وهذه التعارضات في كيان الإنسان كفيلة وحدها بتوطين الحزن في كيان الانسان[٢].

ويعدّ الحزن في الشّعر إحساسًا أصيلًا وليس بجديد، فهو يسري في شراييِنه وقد ظهرت

أولى آثاره عند عدد من الشعراء القدماء كان أهمّهم أبو الطيّب المتنبّي الذي استفاض في وصف الحزن من الفراق. يمكن القول إنّ التأريخ لظهور الحزن في الشعر العربي جاء مع بدايات الرومانسيّة العربيّة التي وجدت بتأثير مباشر من رومانسية الغرب، وقد لازم الحزن الشعر الرومانسي واستقل عن مسبّباته وبواعثه، فتحوّل إلى إطار ذهني وجداني، وإلى أسلوب شعري بحيث يعجز صاحب الحزن أن يحدّد أسبابه ومصادره. فالحزن عند صاحبه شيء دائم وهو قدره، فمن طبيعة الحزن إذا امتدّ به الزمن أن يستقلّ عن مسبّباته، ويتحوّل إلى حالة مزاجيّة وجدانيّة، قد تتأزّم وقد تنفرج بفعل المؤثّرات الخارجية، لكنّه موقف احتجاج شعوري عام، ومعاناة من الوحدة والانتظار. والحزن إذا امتدّ به الزّمن يصبح من مكوّنات الذات الإنسانيّة، والذي تركن إليه في اضطرابها، وهو موقف نفسي وجداني أو فلسفي خاصّ، ولون من الصّوفية من دون تصوّف(٣).

ثانيًا– دوافع الحزن

إن للحزن دوافع متعددة ومتنوعة، فالحزن في كتابات القدماء تجسد إما تعبيرًا عن الاشتياق للحبيبة وألم الحب أو المرض. أما في الشعر الحديث والمعاصر فقد تنوعت فيه موضوعات الحزن لأنها نابعةٌ من وحي معاناة الناس اليومية ونظرًا لتواتر الأحداث وخاصة السياسية في العالم العربي على وجه التحديد، كل ذلك كان مادةً دسمة للشعراء في كتابة قصائدهم. تناول "د. عز الدين إسماعيل" في كتابه "قضايا الشعر المعاصر" موضوع الحزن في بعض أبيات أبي العلاء المعري وهو المعروف بتجسيده لظاهرة الحزن وبلوغه مرحلة كبيرة من التشاؤم النفسي والسوداوية، من مثل أبياته:

"أراني في الثلاثة من سجوني

فلا تسأل عن الخبر النبيثِ

لفقدي ناظري ولزوم بيتي

وكون النفس في الجسد الخبيث"(٤)

ففي هذَينِ البَيتين يتبين الفرقُ بينَ من يُدرك حقيقة حُزنِهِ ومأساته، وبين من يَعيش ذلكَ الحزن من غير ادراك.

المعري يتساءل قائلًا:

"أبكت تلكم الحمامة أم غنْ

نَتْ على فرع غصنها المياد"(٥)

فقال "د. عز الدين إسماعيل": "إن أبا العلاء المعري قد عبّر في هذه الأبيات عن مأساة الوجود الذي يمتزج فيه البكاء بالغناء، أو الحزن بالسعادة. وهو من أجل ذلك يعبّر عن حزن هو أعمق من أحزان الآخرين وإن لم يذرف دمعة".هذا في الشعر القديم، أما بالنسبةِ إلى الشعر المعاصر فنزعة الحزن تهيمن على الشاعر وأصبحت توأم روح ولا تفارقهُ. وتعددت الأسباب المؤلمة والدوافع

التي أوصلت الشعراء إلى هذه الصورة القاتمة. وكان الحزن هو السمة الغالبة على ديوان زينب الحاج مديّح، فلا تخلو قصيدة من قصائدها إلّا وملامح الحزن وبواعثه انتشرت فيها.

ومن هذه الدوافع نذكر:

أ- **الموت وفقد الأحبة:**

يعدّ فن الرثاء أصدق عاطفة ومن أعذب فنون الشعر؛ لأنه يَصدر في قمة المأساة الشاعر، وهو يعاني ألآم الفقد، وفي تراثنا؛ مرثيات صُنفت من أجمل قصائد الأدب العربي، ويروي الرواة أن بعض العرب سئلوا: "ما بال أفضل أشعاركم الرثاء"..؟ فأجابوا: لأننا نقولها وقلوبنا موجعة، أي لأنها صادرة عن عاطفة حارة، خاليةً من كل تكلفٍ وتصنع. الرثاء يكون على فيد من الأهل أو القوم، وهذا النوع هو أصل الرثاء، وقد رثى جرير زوجته بقصيدة جاء في ختامها:

"لولا الحياء لهجاني استعبارُ
ولزرت قبرك والحبيب يزارُ"(٦)

كما تناولت نازك الملائكة في قصيدتها "الكوليرا" والتي تعدّ القصيدة الأولى في الشعر العربي المعاصر، تناولت المَوت بسبب المرض قائلةً:

"الموتُ الموتُ الموتْ
تشكو البشريّةُ تشكو ما يرتكبُ الموتْ
الكوليرا في كَهْفِ الرُّعْب مع الأشلاءْ
في صمْت الأبدِ القاسي حيثُ الموتُ دواءْ"(٧)

عبّرت الشّاعرة في هذه الأبيات الشعرية عن الألم الذي يملأ البيُوت بسَبب الموت الذي يُحدثه مرض الكُوليرا، فهي كتبت هذه القصيدة عندما اجتاح مرض الكوليرا مصر. فكرّرت كلمة الموت في أكثر من موضع، وتتابع قائلة:

"طلع الفجرُ
أصغِ إلى وقع خطى الماشين
في صمت الفجر أصِخْ انظر ركبَ الباكين
عشرةُ أمواتٍ عشرونا
لا تُحصِ أصِخ للباكينا
اسمع صوتَ الطفلِ المسكين
موتى موتى ضاع العددُ
موتى موتى لم يبقَ غدُ"(٨).

الشاعرة تبدأ بكلمة "طلع الفجر"، ولكن هنا؛ الفجر لا يدل على الأمل والإشراق، بل يدل على اليأس؛ لأن هناك ستُسمع أخبار من وفاة ورحيل، كما وتشرح حال البلاد بعد تفشي المرض.

أما الشاعرة "زينب الحاج مديّح" موضوع بحثنا، فقد تناولت الحزن بسبب الموت في ديوانها (وانطفأت شموعي) من زاوية أخوتها الأربعة الذين قضوا جميعهم، فقامت برثائهم في قصيدة تحمل عنوان "مأتم"، قائلةً:

"في كلّ ليلة أقيم مأتم روحي
ومأتم أرواحكم البريئة يا أخوتي

عبد الكاظم وعبد الرضا وعبد النبي وعبد الكريم والغالية فاطمة

يا أحلى طيف أختزنه في ذاكرتي من أيام طفولتي

هنا تعبّر الشاعرة عن بالغ حزنها على موت أخوتها مصوّرة حياتها من دونهم على أنها مأتم، وتضيف:

كل ما خرجت به من تلك الطفولة الجميلة

هو العيش معكم تحت سقفٍ واحد

أتذكر يا أخي- عبد الكريم- عندما كنتَ تأتي من البصرة

وأنت تحمل لي في حقائبك المثقلة بهمومك

ألعاب الأطفال التي ما زلت أحتفظ بها"[٩].

في هذه السطور تستذكر الشاعرة أيام الطفولة، وتخاطب أخاها عبد الكريم الذي كان يأتي لها بالألعاب وكيف أنها تحتفظ بها متأملةً أنه سيعود يومًا ما.

كما أن للموت حكاية أخرى مع الشاعرة في قصيدة (وقفة على مقبرة محمد السكران) تقول في مطلعها:

"لم أوجد إلا لأروي

حكاية موتي والفناء

ملامحي باهتة

وعيناي يجعلهما الدمع غارقتين

في عتمة الروح

عجيبة هي الدنيا

عبارة سمعتها وقرأتها مرارًا

ولكني لا أجد العجب في الدنيا

و إنما أراه يتماوج في ثقبي عيني الغائرتين من شدة الحزن وشدة الوجع"[١٠].

هنا نلاحظُ صورًا كثيرة من الأحزان والآلام صبغت قصائد الشاعرة ، فقد تحدثت عن ملامحها التي أرهقها الألم، والمرارة التي تسكنها جاعلةً عينيها مليئتين بالدموع دومًا.

ب- الغربة والاغتراب:

الاغتراب في الشعر يُعَبّر عن أزمة ذات وجهَين: "الأول يتصلُ بفقدان الهوية والانتماء، والثاني يتحدث عن العلاقة المتأزمة مع المجتمع"، وكلاهما يقودان للعزلة، وللشعراء بوصفهم معبّرين عن الأحاسيس المجموعات، لأن الإنسان العربي يعاني مسببات عديدة لاغترابه، ولا يجد في الأفق حلًّا لها.

ولمّا كان الشاعر العربيّ معروفًا بحسّه المرهف وتأثره السريع كان عليه أن يعيش مأساة الاغتراب على مرّ العصور، فقد اقتصر الاغتراب عند الشاعر القديم على البعد من الوطن وفراق الأهل والأحبّة، ليأخذ مفهومًا مغايرًا في الشعر الحديث، حيث أصبح الشاعر يعيش الاغتراب وسط أهله وفي وطنه، ومن هؤلاء الشعراء: الشاعر العراقي بدر شاكر السيّاب.

تناول الأخير موضوع الغربة في قصيدته بعنوان "يا غربة الروح" قائلًا:

"يا غربة الروح في دنيا من الحجر

والثلج والقار والفولاذ والضجر

يا غربة الروح لا شمس فأئتلق
فيها ولا أفق
يطير فيه خيالي ساعة السحر
نا تضيء الخواد البرد تحترق
فيها المسافات تدنيني بلا سفر
من نخل جيكور أجني داني الثمر
نار بلا سمر
إلا أحاديث من ماضي تندفق
كأنهن حفيف منه أخيلة
يا غربة الروح لا روح فتهواها
لولا الخيالات من ماضي تتسرب
كأنها النوم مغسولًا به التعب"(١١).

في هذه القصيدة التي وُزّعت على أسطر بدلًا من الأشطر، يتحدث الشاعر عن قريته "جيكور" التي أحبها ولكن بسبب الظروف أجبر على الخروج منها والانتقال إلى المدينة، فقارن بينها وبين الريف والغربة التي أحس بها نتيجة هذا الواقع المستجد.

أما الشاعرة زينب مديّح فقد تناولت الاغتراب أيضًا من زاوية أخوتها الذين فقدتهم مفضلةً الاغتراب على البقاءِ في وطنها الذي ظلم أخوتها وعذبهم واعتقلهم، فجاءت قصيدتها "سأرحل" لتختزل كل معاني المرارة كالغربة والوحدة والانكسار واليأس:

"دعيني أموت بين كتبي وقصائدي
دعيني واذهبي عني
قلت لك: أنني لن أبقى في بلدي
وسأموت وتقتلني غربتي
سأرحل يا أمي
وتسألين لماذا يا صغيرتي؟
أصيح بأعلى صوتي يا أمي
أن أهل بلدي اعتقلوا وعذّبوا أخوتي"(١٢).

ج- الوحدة:

ثمّة من يرى أنَّ الوحدة هي "إحدى العوامل التي تحرِّض على الإبداع فالقصائد لا تولد من تحقيق ورضا وإنّما تولد من الشعور بالحزن من الوحدة والإخفاق والبحث الذي لا يُغني"(١٣). كما أن قلب الشاعر هو الإسفنجة التي تمتصّ أحزان البشرية جمعاء.. فانكفأ على نفسه "متسائلًا عن علّة وجده، ومدى الحاجة إليه وحقيقة الدور الذي يناط به في هذه الحقبة من تاريخ الإنسان .تساءل طويلاً عمّا إذا كانت البشرية تحتاجه ليزيل أحزانها وهمومها ويدخل عليها الفرح والسرور، فلم يقنعه هذا الدور الذي لا يرتفع به تارة عن دور المهرج وطورًا عن دور المغني، وتساءل عمّا إذا كانت البشرية تريد منه أن يكون لسانًا معبّرًا عن انجازات أمّة من الأمم وقدراتها فساءه إلّا يناط به هذا الدور الذي يتقنه غيره إضعاف إتقانه له"(١٤).

انتشر موضوع الوحدة بكثرة في الشعر العربيّ فنرى مثلًا الشاعر الحزين صلاح

عبد الصبور في قصيدة (شذرات من قصيدة متكررة) يعبّر عن وحدته قائلًا:

"وحيدًا حزينًا أواجه عينيك إذْ تسألان الفرح
وحيدًا حزينًا أواجه كفَّك حين تُمدُّ إليَّ
وحيدًا حزيناً أواجه فرحة حبَّك"(١٥).

وهنا الشَّاعر "أمل دنقل" يُعبِّر عن حزنه قائلًا:

"في الحفل التقليديِّ لعيد الميلادْ
وجهت الدعوة للأصحاب وللخلانْ
لم تحضر إلا الأحزانْ"(١٦).

أمّا الشاعرة زينب الحاج مديّح التي كانت معظم قصائدها تتناول عنوان الوحدة ومآسيها في قصيدة (كآبة) :

"قابعةٌ في غرفتي وحدي
اعدّ ثواي الزّمنِ البغيضِ
خيوط الكآبةِ تلتفُّ حولي
تقيّدني تجعلني ليستْ سوى امرأة
جوفاءَ لا شعورَ لها
سوى الضجر المضني
الضجرُ الّذي يتضمّخُ به في كلّ يومٍ
عقلي اليابسُ لا قطرة فيهِ منْ فرحِ
أستلُّ منْهُ دموعَ اليأسِ
مثلَ صخرةٍ لا شقّ فيها
ماذا أفعلُ أيُّها اللّيلُ؟!
ماذا أفعلُ أيُّها البردُ؟!
ماذا أفعلُ أيّتُها الكآبةُ؟!
أأظلُّ أنسجُ كلماتٍ خرقاءَ مثلك...
لا حراكَ فيها لا رونقَ لا شعور؟؟؟"

كما تناولت الموضوع ذاته في قصيدة (قصة)، قائلة:

"أأكتب عن وحدتي؟ أم أكتب عن يأسي؟
لا بل سأكتب عن زهرة الحزن التي غرست روحي
تلك هي زهرة الحزن سقيتها من مهجتي ودمي
فأورقت زهورًا أخرى للحزن فيّ
في كل يوم تورق واحدة وربما أكثر
حتى وصلت إلى هذا الزمن الذي أنا فيه
فعرفت أنني زهرة الحزن
والزهور الباقية هنّ بناتي"(١٧)

الوحدة هنا المَدخل للنص، ومن هنا كان مدخل النَصّ يتواءم مع عنوانه حينما جعلت مطلع القصيدة صيغة إنشائية استفهامية (أأكتب عن وحدتي؟ أم أكتب عن يأسي؟؟) فهذا التساؤل الذي أرادته الشاعر مطلعًا لنصها يفجر صورةً درامية عالية تجعل المتلقي يحار ويستفهم (إلى من توجه الشاعرة هذا التساؤل) أهي تعاتب نفسها على وحدتها، أم أنه نوع من الفضفضة الداخلية وحوار الذات، أم السؤال عن الألم واليأس والوحدة والقهر؟

ونعود إلى النص ذاته، حيث تمر الشاعرة وحيدة على الذكريات في بداية نصها فتفعل ما يفعل الأولون عندما يفتتحون القصيدة بالوقوف على الأطلال وتذكر الحبيب، فقد اختلف الأمرُ هنا فالشاعرة مديّح فهي لا

تقف على الأطلال كتقليد فني بل من أجل تذكر الوحدة لا لغرض غيره.

د- **الحزن بسبب الأوضاع السياسية:**

إذا كان للشاعر الحق في التعبير عن مشاعره وألمه وأحاساسه، فإن من حق المُجتمع عليه أن يتبنى قضاياه ويعبر عنه، الشاعر لا يعيش بعزلة عن المجتمع، بل ملتحمًا بجموع الناس ومعايشًا لقضاياهم.

الشاعرة نازك الملائكة كانت رائدةً في هذا النوع من القصائد الحزينة التي تعبر عن التضامن مع الإنسان والشعوب في مواجهة الطغيان، ففي قصيدتها (أنشودة السلام) تدعو إلى السلام ووقف الحروب ونزيف الدم والقتل بقولها:

"أيها السادرون في ظلمة الأرض كفاكم
شقاوة وذهولا
احملوا نادمين أشلاء موتاكم ونوحوا
على القبور طويلا
ضمخوها بالعطر لفّوا بقاياها بزهر الكنار والياسمين
واهتفوا حولها بأنشودة السلام ليهنا
في القبر كل حزين
اجمعوا الصبية الصغار ليشدوا بلحون الصفاء والابتسام
أنقذوا الميتين من ضجة الحرب ليستشعروا جمال السلام"[١٨]

أمّا الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي الذي لطالما حمل لواء المعارضة للنظام القمعي في بلده، والذي تم نفيه إلى الخارج فكان من أكثر الشعراء الذي كتبوا في السياسة والوطن الجريح، ومن أهم قصائده قصيدة (مذكرات رجل مجهول):

"مولاي! أمثالي من البسطاء لا يتمردون
لأنهم لا يعلمون
بأن أمثالي لهم حق الحياة
وحق تقرير المصير
وإن في أطراف كوكبنا الحزين
تسيل أنهار الدماء
من أجل إنسان، الغد الآتي، السعيد
من أجلنا، مولاي أنهار الدماء
تسيل من أطراف كوكبنا الحزين"[١٩]

في هذه القصيدة جسد لنا الشاعر البياتي يوميات رجل بسيط من الطبقة المسحوقة والذي لا ينبغي له التحدث أمام الحكام عن معاناته، وليس مسموحًا له أن يتمرد على واقعه الظالم والمأساوي.

وهكذا فعل الجواهري، ومحمود درويش، وأحمد مطر وكثير غيرهم من شعراء المجتمع الذين سَخروا شعرهم ليعبروا عن قضايا وطنهم بالتوازي مع التعبير عن آلمهم الذاتي.

وهذا نجده لدى الشاعر "محمد رشدي" حين يقول بقصيدة "مدادٌ أحمر":

"فى شاشاتِ التلفازِ
دماءٌ
تغمرُ كلَّ بقاعِ الكونِ

كأنَّ اللونَ الأحمرَ
صارَ مداداً للتاريخِ القادمِ
كيفَ نكونُ
إذا ...
ما سادَ اللونُ الواحدُ
والفكرُ الواحدْ ؟!"[٢٠]

ثالثًا: صور الحزن في ديوان (وانطفأت شموعي):

كان الشاعر القديم يقف برؤيته – في الغالب – عند حدود الوجه الواحد، فإذا هو رأى الوجه المُطْرِب طَرِبَ، وإن هو رأى الوجه المُحْزِن حزن .أمَّا الشَّاعر المعاصر فقد اتَّسعت رؤيته واكتسب نوعًا من الشِّمول، فلم تعدْ أشكال الحياة أمامه ألوانًا مختلفة يستقل بعضها عن بعض، وإنّما تتمازج فيها الألوان لكي تصنع الصُّورة العامَّة، ومن ثمَّ لم يعد الشِّعر المعاصر سوى الجانب النَّاصع وحده، أو الجَّانب القاتم وحده، وإنَّما يرى الجانبين ممتزجين، فإذا هو رأى الجانب القاتم استشرف فيه السُّطوع والضَّوء".

تعدُّ الشاعرة زينب مديّح صوتًا شعريًّا قويًّا بين شعراء الجيل الحالي ليس في العراق فحسب بل في الوطن العربي كله؛ لأنّها حين تكتب الشعر يتجلى في أعمالها ظواهر شعرية وقضايا حداثية ، فضلًا عن لغتها القوية وألفاظها العذبة. فديوان "وانطفأت شموعي" تفوح منه رائحة الحزن التي ميّزت الشاعرة في هذا العمل، فمنذ أن تلتقط عيناك سيميائية اسم الديوان تشعر بكمية من **الحزن والكآبة** التي يعبّر عنها، وحين تشرع في قراءته يتضح لك حجما لهموم والأحزان التي تتسلل إلى مشاعرك وكيانك وكأنّ الشاعرة تتكلّم موصّفةً واقعنا الذي نعيشه في كلّ مكان، كما تعدّ قصائدها تعبيرًا عن همّ داخلي متجذر فيها، بين ضلوعها، وفي عقلها ومن تجاربها التي تعبّر عن هموم الإنسانية كلها، ونرها أحيانًا تحزن لحزن من حولها، فتقول في قصيدة (وانطفأت شموعي):

"عن ماذا أتحدّث يا سلوة أيّامي
فقدْ طالَ فراقكم. يا أخوتي. وسيطولُ أكثر برحيلِكُم الأبدي
أمّا أنا. يا أخوتي. فبعدكم
قد طالتْ أيّامي وطالَ نهاري وليلي
وتساقطتْ أوراقي
وإذا كانَ للخريفِ من يلملمُ أوراقهُ
فالريحُ قد نسفت أوراقي نسفًا
علتها قاعً صفصفًا"[٢١]

حملت هذه القصيدة عنوان "وانطفأت شموعي"، وهي قصيدة محورية في الديوان بما تضمّن تهمن آهات ومعاناة، ولأنّها تحمل اسم الديوان؛ ولعلّ أبرز ما يميز حالةَ اليقين المتسمة بالحزن المعرفي، باتت هذه الظاهرة العلامة الفارقة في الشعر العربي المعاصر، وقد تعاملت معها الشاعرة "مديّح" بتعامل

وجداني خالص. وبإحساس مرهف ووجع انساني.

كان الأمل عند الشاعرة متعلقًا في عكّاز أمّها التي أبعدتها عن الوحدة والألم والحزن وقرّبتها إلى التفاؤل لأنّ تلك العصا ما فتأت تذكر يوسف ذلك الرمز الذي رُمي في الجبّ، وما زالت الأمّ تنتظر ولم تقطع الأمل، فتقول الشاعرة في قصيدة "عكّاز أمّي":

"أتململُ على سريري الباردِ قربَ شبّاكِ الغرفةِ
الغرفة الّتي تخيمُ عليها وعلى جدرانِها
لعنة الزّمنِ المجحفِ
ومعي حفنةٌ منَ الذّكرياتِ العقيمةِ
الّتي أصبحَتْ مهترئةً منْكثرةِ
ما مرّ عليها منْ وقتٍ
وعلى مقربةٍ منّي، ومن تلك الذكرياتِ
عكّاز أمّي الّتي ما فتأت تذكرُ يوسف
إلّا أنَّ يوسفَها لم يخرجْ من الجبِّ
وابتلعتْهُ سورةُ الماءِ..."

وإذا أردنا أن نلتمس خطوطًا عريضة لحزنها نعودُ إلى قصيدة "ذات في مطحنة"، والتي تقول فيها:

أقرعُ ناقوسَ روحي
أطحنُها في مطحنةِ الذّاتِ
أتلَفّتُ يمينًا وشملاً
هلْ أجدُكَ
أيُّها الحبُّ؟؟
فلا أجدُ شيئًا
فأعودُ إلى روحي وإلى المطحنةِ
أعلّلُ نفسي
ربّما همسٌ ربّما وقعُ خطى
ثمَّ أعودُ إلى أوراقي البالية
أقلّبها
لأجدَ صورتي المنفيّة في ذلكَ العمقِ
أقرأُ وأترجمُ ربّما أكتبُ شيئًا أعمقُ
ولا شيء يحدثُ" (٢٢)

هنا تُدلل الشّاعرة على أنّ الحياة معاناة، ونظام الحياة الداخلي مفتت وموهوم مهما كان النظام الخارجي منظمًا وممنهجًا.. تحاول الشاعرة أن تبحث عن الحبّ عساها تعتاش منه وتعيشه، ولكن لا جدوى، لأنّ الحزن قد أحاطها من كل الجهات، وبادرت تعلّل الآهات وتعلل النفس بالآمال من خلال أوراقها البالية، فكادت تعثر على فرج من صورتها المنفيّة في ذلك العمق البعيد في نفسها، ولكن لا شيء يحدث ويغيّر آلامها.

ظل حزن الشاعرة مصبوغًا بماهيّته. وماهية المجتمع المحيط بها، وما يتفوّه به من لوم وعتاب، ومن ذلك الحبّ والعشق الذي يكاد أن يقتل صاحبه وحبيبه في آن واحد، وهنا الشاعرة هي إنسان تعشق وتحب وتغرم ولها عواطفها الجياشة وذكرياتها وأحلامها التي لم تنسَها يومًا وظلّت في مخيلتها تنتظرها، علّها تتحقّق يومًا، وتلتقي بالحبيب أو يعود إليها، وتقول في قصيدة "ذكرى":

"لا أذكرُ أيَّ شيءٍ
سوى أنَّ عينيْكَ قالتا أعشقُكَ حدّ الوله
وصدقْتُ وتهْتُ في الحلمِ
ولمْ أفقْ إلاّ وأنا في نقّالة المرضى
والنّاس حولي يقولونَ: يا للمسكينة!!
ولمّا عادَ إليّ رشدي
وجدتُكَ غيركَ
ووجدتُكَ لا تتذكّرُني
وأنا وحدي أتذكّرُ الحلمَ
الذي لمْ أنسَهُ حتّى اليوم
لمْ أنسَهُ رغمَ مرورِ دهرٍ على نظرةِ عينيْكِ
أغلّفُ تلك الذكرى بألوانِ الأحلامِ والأزهارِ
... ولديّ أملٌ أنّكَ ستتذكّرُ يومًا وتعودُ
إلى ذكرى تجمعنا(٢٣)

عاشت مديّح المجتمع بكل قضاياه الحزينة والمفرحة وتحمّلت الألم والمعاناة، وجسدت في قصيدة (ليلة الحرب) صورة الحرب المدمرة وضمتها إلى حروبها الخاصة فهي حرب لا دماء فيها ولا دمار، فنجد مفرداتها التي تحاول فيها إقامة حرب مع نفسها بما تسمعه وتعرفه ممّا حولها، فهل تستسلم إلى النوم وتخلد؟ وهل ستضحك الدنيا منها؟ وهل ستطوى أحلامها تحت وسادتها؟ وهل ستصحو وربّما ستموت بعد تحقيق أحلامها؟ ولا شيء يرضيها أو يريحها إلا صوت الله القابع في جوفها والدليل على عمق إيمانها بالقضية التي تعيشها، هو سماعها لصوت يناديها، وهي في هذه الحالة، "يا صغيرتي لا تجزعي/ فما مضى كان أقسى/ كلّ الّذي يأتي يهون. إلى أن تقول:

"سأضع القرآن قرب وسادتي لأشعر بالأمان
طويتُ أحلامي تحت وسادتي
ونويت أن أنام
تراني هل أنام فعلًا في ليلة كهذه
في هذه الليلة ضحكنا....وربما
ستضحك الدنيا منا بعد حين
وأحلامي التي طويتها تحت وسادتي
ستصحو وربما ستموت
وبينما أنا أفكر بتلك الصيغة المفجوعة
أسمع صوت الله ينادي
يا صغيرتي لا تجزعي
ثم ترضى بخسارتها مع رضى الله، في نهاية القصيدة بقولها:
لأشعر أنّ صوتَ اللهِ ما زالَ معي
كلّ الذي يأتي يهون(٢٤)

إنّ الشاعرة زينب الحاج مديّح تمزج في صورها بين الحسي والمعنوي، واستطاعت أن تُشعر المتلقي بمدى الفقد الذي عاشته، انتقت الشاعرة بحسها الفنّي المفردات الملائمة لطبيعة التجربة، والتي يستدعيها سياق التذكر في وصف المعاناة، كما كان الشاعرة موفقة في اختيار موسيقى القصائد تكون قد وظفت أدواتها الفنية بشكل رائع للتعبير عن مأساتها. حيث استطاعت أن

تعبر ببراعة عن تجربتها الإنسانية مقدمةً إلينا أنموذجًا للوفاء الإنساني، وللإبداع الراقي الذي يعرف كيف يوظف أدواته الفنية لتجسيد مشاعره.

خاتمة

في المحصّلة، وبناءً على ما سبق ذكره، نختتم دراستنا هذه مؤكدين على أن دواعي الحزن تعددت وتنوعت على مرّ العصور والحقبات التاريخية، بدأت تأخذ حيّزًا في الشعر القديم وسرعان ما انتشرت وتوسعت في الشعر الحديث والمعاصر، نظرًا إلى سيطرة أجواء اليأس لأسبابٍ جمّة؛ فمن الشعراء من يحزن لأسباب عاطفية، أو نتيجة فقدٍ للأحباب، ومنهم يحزن لأسباب سياسية أو اجتماعية وغير ذلك..كما تختلف طبيعة الحزن لديهم فمنهم "من تتسلط عليه المشاعر السلبية ، فتأتي رؤيته للواقع سوداوية، ومنهم من وظّف الحزن للتعبير عن قضايا وطنية وعيوب اجتماعية". واعتمد الشعراء في التعبير عن أحزانهم أدواتهم الفنية فكانت اللغة تعبرُ عن مشاعرهم من دون تعمية أو غموض.

كما أجاد بعضهم في الصورة الشعرية إلى حدٍ بعيدٍ، حيث جاءت الصورة مجسدةً لمشاعر الحزن التي يعانيها الشاعر.

الهوامش:

(١) ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، القاهرة، مادة حزن.

(٢) عبد الفتاح، كاميليا، إشكالية الوجود الإنساني "دراسة نقدية تطبيقية في الشعر الواقعي والحداثة"، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٨، ص ٢٩.

(٣) ينظر: المحسن، محمد، الحزن في بعض قصائد الشاعر جلال باباي، دنيا الوطن ٢٠٢٠/٦/١٩

(٤) ديوان ابو العلاء المعري، المحقق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٣١.

(٥) ديوان ابو العلاء المعري، المرجع نفسه، ص ١٣١.

(٦) ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب المحقق: د .نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص ٥٤.

(٧) الملائكة، نازك، ديوان نازك الملائكة، المجموعة الشعرية الكاملة مج١،دار العودة، بيروت، ٢٠٠٥، ص١٣٩.

(٨) الملائكة، نازك، ديوان نازك الملائكة، المصدر نفسه، ص١٣٨، ١٤٠.

(٩) الحاج مديح، زينب، وانطفأت شموعي، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ٢٠١١، ص ٤٢.

(١٠) الحاج مديح، زينب، وانطفأت شموعي، مصدر سابق، ص ٨٧.

١١- نبيلة، عبدو، الاغتراب في الشعر العربي المعاصر بدر شاكر السيّاب أنموذجًا، كليّة الآداب واللغات، (الجزائر)، ٢٠١٢ ٢٠١٣

(١٢) زينب الحاج، زينب، وانطفأت شموعي، مصدر سابق، ص ٣٣.

(١٣) حجازي، أحمد عبد المعطي، الشاعر المعاصر : د. مصطفى ناصف الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦، ص٩٠.

(١٤) السريحي، سعيد مصلح، الكتابة خارج الأقواس دراسات في الشعر والقصة ، ط١، ١٩٨٦، إصدارات نادي جازان الأدبي . ص ١٨-١٩.

(١٥) عبد الصبور، صلاح، الإبحار في الذاكرة، دار الشروق ، بيروت ، ط٢، ١٩٨١، ص٥٢.

(١٦) دنقل، أمل، الأعمال الشعرية للشاعر، دار العودة، بيروت ، ١٩٨٥.ص٢٢٤.

١٧- مديّح، زينب، وانطفأت شموعي، مصدر سابق، ص ٥٧.

(١٨) ديوان نازك الملائكة، مصدر سابق، ص ٤٧.

(١٩) مذكرات رجل مجهول .عبدالوهاب البياتي. ٢٠٠٩/٧/٢٤، الادب والفن. ٨ نيسان.

(٢٠) مجلة العمارة والفنون والعلوم الانسانية، مجلد ٦، العدد ٣٠، نوفمبر ٢٠٢١.

(٢١) الحاج مديح، زينب، وانطفأت شموعي، مصدر سابق، ص ٦٣.

(٢٢) الحاج مديح، زينب، وانطفأت شموعي، مصدر سابق، ص ٧.

(٢٣) الحاج مديح، زينب، وانطفأت شموعي، مصدر سابق، ص ٥٩.

(٢٤) الحاج مديح، زينب، وانطفأت شموعي، مصدر سابق، ص ٢١.

المصادر والمراجع:

- ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، القاهرة.
- البياتي، عبد الوهاب، **مذكرات رجل مجهول**، الادب والفن، ٢٠٠٩/٧/٢٤.
- حجازي، أحمد عبد المعطي الشاعر المعاصر: د. مصطفى ناصف الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م
- دنقل، أمل، الأعمال الشعرية للشاعر، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥.
- ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب المحقق: د .نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، ط٣.
- القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ونقده، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.١، ٢٠٠٠م، ج٢
- عبد الفتاح، كاميليا، إشكالية الوجود الإنساني "دراسة نقدية تطبيقية في الشعر الواقعي والحداثة"، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٨.
- عبد الصبور، صلاح، الإبحار في الذاكرة دار الشروق، بيروت،ط٢، ١٩٨١.
- عبد اللطيف، حني، "شعرية الانزياح وبلاغة الإدهاش في الخطاب الشعري الشعبي الجزائري، دار عجمان، ١٩٨٩.
- مجلة العمارة والفنون والعلوم الانسانية، مجلد ٦، العدد ٣٠، نوفمبر ٢٠٢١.

- المحسن، محمد، الحزن في بعض قصائد الشاعر جلال باباي، دنيا الوطن ٢٠٢٠/٦/١٩.
- مديّح، زينب، وانطفأت شموعي، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ٢٠١١.
- مصلح السريحي، سعيد الكتابة خارج الأقواس دراسات في الشعر والقصة، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، إصدارات نادي جازان الأدبي.
- نازك الملائكة، ديوان نازك الملائكة، المجموعة الشعرية الكاملة مج١، بيروت: دار العودة، ٢٠٠٥.
- نبيلة، عبدو، الاغتراب في الشعر العربي المعاصر بدر شاكر السيّاب أنموذجًا، كليّة الآداب واللغات، (الجزائر)، ٢٠١٢ ٢٠١٣.